



١٨٣٠ - ١٩٣٠

بقلم الاب جيرائيل لوفتك البسوي

شواطئ اوربية على البحر المتوسط قروناً عديدة ترى
العداوة كاملة متحيزة في ما يقابلها من شواطئ افريقية ،
حتى ان المراكب الاوربية كانت ، اذا اقتربت من تلك الموانئ ،
سارت ورجلة خائفة حذر الالتقاء بمراكب القراصين من البرير .

وانشا نعجب اليوم لدوام الاضطراب طول تلك المدة ، في المناطق
الافريقية وما جاورها من البحر المتوسط . على انها الحقيقة ، وقد ظل الأمن
مختلاً على الرغم مما بذله الاوربيون في سبيل اقراره . وذلك لان اعمالهم هذه
كانت متقدمة ، متناوبة ، يتعصها الثبات والتثبيت . فقد اشأ البرتغاليون مراكب
حصينة على الشواطئ المراكشية ، وكذلك قام الاسبانيون بالفتوحات الباهرة
على شواطئ الجزائر وتونس ؛ ولكن لم يدم شي . من ذلك مدة طويلة . وفي
سنة ١٥٤١ ، اقلع الامبراطور شارلكان ، في سبائة مركب شراعي ، وجيش
لجب ، حتى انتهى الى الجزائر فحاصر مدينتها . الا ان معاكسة العناصر اجبرته
على الرجوع من حيث اتى فتك الحصار ، وظلت الجزائر عاصمة القرصنة ،
وموتل لصرص البحار ، وموضوع رعب الامم المتبددة .

وفي القرن السابع عشر تقدم الفرنسيون . الى تلك البلاد ، فدخلها اولاً
بعض المرسلين من الكاثوليك ، وجاء ان يُعزوا من فيها من الاسرى
النصارى ويهتروا بشؤونهم الروحية . ثم حاصرها العسكر الفرنسي فصب قتاله

على اسوارها . فكان من انتقام الجزائريين انهم كانوا يضمنون في فوهة المدافع كل من وقع تحت ايديهم من المسيحيين . وهكذا هلك الاب لوفاشي (Le Vacher) من اللعازيين ، وكان اتصالاً لدولة فرنسة ، بينا كان احد شرقاء فرنسة ، وهو الضابط دي شوازل بوبري (de Choiseul Beaupré) يقول لآسبريه بكل عجب وانفة : «هما بالتم في تشنيع جثتي ، فلن تدفوني الى ان أفسد علي ديني او اجلب العار على أرتقي ا» وكان ذلك سنة ١٦٨٣

ثم اتى عصر فضّل فيه اربابه السماح بالقرصنة على قطع العلاقات مع تلك الجهات ، وكان ذلك عصر الثورة الفرنسية ، فاقترض امير الجزائر مجلس ادارة فرنسة (Directoire) مليوناً دون فائدة ، وسمح لاثنين من يهود ليثورن بنقل كيات الجيوب اللازمة للجمهورية . وان من القرائب ان تقضي المفاوضات بهذه المسألة ، بعد نصف قرن ، الى دفع الاسطول الفرنسي الى المهجوم على شواطئ الجزائر .

سقطت مدينة الجزائر في يد الفرنسيين في ٥ تموز ١٨٣٠ . فكان ذلك القتح من اهم الحوادث الحربية . اما اليوم فاننا نراه في ضوء التاريخ من اهم الحوادث المالية على الاطلاق . وفعلًا فان كانت اهمية انتصار ما بما يعقبه من النتائج الحسنة ، فان فتح الجزائر لاهم من انتصارات فونتنوي ، او مارنتو ، او اوسترتر ، لان به نشأ شعب جديد على ذاك الشاطئ الافريقي : شعب وطني باوربي مآ .

وعليه فاننا نرى من الحق ان تقوم بواجب الشكر لمن عملوا على تحقيق هذه النشأة الباهرة ، وقد قال اوغت برنار : « ان الملكية الجديدة في فرنسة لم تقم فقط ، في ارسالها بعثة الجزائر ، بعمل من السياسة الداخلية تقتضيه الظروف الصعبة المحيطة بالوزير بولينياك ، بل قامت ايضاً بعمل يفرضه الشرف والمصلحة الوطنية . »^{١)}

(١) راجع Aug. Bernard, *L'Algérie, 1929, Alcan, p. 177.*

وقد خلّدت ذكر هذا الانتصار صحيحة من الرخام وضمت على باب حصن سيدي فرّوش ونُقش فيها:

هنا في ١٤ مزيرانه ١٨٣٠
 بإمر الملك شارل العاشر
 تحت قيادة الجنرال دي بورصوه
 نصب الجيش الفرنسي اعلامه
 فأعاد الحرية للبلاد
 واعطى الجزائر لفرنسه

هذا تذكار من الحق ان يحتفل به الاحتفال الشائق ، لاسيا وانه من النادر ان ترى امة عظيمة تحتفل بمثل هذا الاحتفال .

* * *

كم كان عدد سكان الجزائر الوطنيين سنة ١٨٣٠ ؟ لم يكونوا يتجاوزون المليون الا قليلا . لان حالة الحرب الدائمة ، وانتياب المجاعات ، وانتشار الأوبئة المتعددة ، كل ذلك كان يجعل من البلاد بقعة مستوحشة . اما اليوم فيبلغ عددهم الحصة الملايين ، وقد لوحظ انه اعتباراً من سنة ١٨٢٦ يزداد الوطنيون زيادة عظيمة متتابعة بمعدل ٢٠٠,٠٠٠ كل خمس سنوات . وذلك نتيجة تحمين شروط الحياة ، بتعداد منشآت الصحة والاسعاف العام وما اليها من الاعمال الانسانية المزدهرة في ظل السلام الفرنسي . ثم ان الوطنيين يتحققون ان الارض نفسها قد تقدمت من حيث غنى التربة وكأنها زادت مساحة . وعلى الرغم من ان القسم الكبير ، المتجاوز النصف من ارض الجزائر الشمالية ، لا يزال مواتاً ، فقد زاد خصب الاراضي المزروعة وبلغت مساحتها ثمانية ملايين هكتار . اما هذه الزيادة المهمة فقد ارتكزت على ثلاث عمليات : التوسع بالاراضي المزروعة ، وتحسين الزراعات القديمة ، وادخال زراعات جديدة . وكان من اجلي مظاهر هذا

التحسن الاقتصادي تقدم زراعة الكروم ، فقد بلغت مساحتها اليوم ٢٣٨,٠٠٠ هكتار ، ولم تكن تبلغ سنة ١٨٧٩ سوى ٢٠,٠٠٠ هكتار . فبدأ هذا التقدم بتلك الحركة الاقتصادية التي انعشت بلاد الجزائر ونقلتها من المر إلى الرخا . الذي تنعم به منذ ثلاثين سنة .

وهناك غير الكرم مزروعات مهمة كالطين والزيتون ، وهما المرودان المهان لاهل القبائل المزدهمين جداً حتى يبلغ عددهم ١٢٣ و ١٩٨ و ٢١٨ في الكيلومتر المربع . وان ما تستهلكه العائلة الواحدة من اهل القبائل ، في السنة ، من التين يبلغ ٢٠٠ كيلوغرام ، اما الزيت فمعدل ما يستهلكه الشخص الواحد يبلغ ١٥ ليترًا .

قبل الفتح الفرنساوي كانت الاراضي تفوق حاجة السكان اقناعاً ، لان عدد هؤلاء كان قليلاً ، فضلاً عن انهم كانوا مقشقين في نواحي شاسعة لا يفكرون الا بحرق ما يكفيهم من المساحة القليلة إزاء ما كنهم . وما ذاك الا لحوفهم الدائم من الغزو وما يليه من نهب ونسب .

وعليه كان عمل الفاتحين سهلاً جداً اذ صرفوا همتهم الى النهوض ببلاد ما زالت تتدهور في دركات الحمول منذ العهد الروماني ، فأمنوا حياة سكانها ، وحثوا اقتصادياتها بان جدوا زراعتها وعززوا صناعتها وتجارتها ، فسطروا امام اهلها كنوز اراضيهم المختلفة الثمينة . فكان من واجب الوطنيين ايضاً ان يحتفلوا مع الفرنسيين بهذا التذكار المنوي .

* * *

على ان الانسان لا يعيش بالحيز وحده . فما كانت قيمة التأثير الاخلاقي والديني الذي اثره الاوربيون في ذلك الشعب ؟ هو ما سنجهد في تبياناه :
دخل الفرنسيون الجزائر ، ولا ميل يدفعهم الى مناوأة دين السكان او اخلاقهم او عاداتهم ، فلم يكن دخولهم يشبه في شي . تلك الفتح القديعة المرتكزة على الجهاد الديني . ولكن كان من طبيعة الحال ان تتقابل المدينتان وجهاً لوجه بما لكل واحدة من الحقوق والواجبات . على ان الكثيرين من

الفريقين لم يتبهدوا لهذه النقطة ، فتركوا الامور تجري مجراها دون اهتمام او شبه اهتمام بالعلاقات الدينية والاخلاقية . حتى قام كبار الكاثوليكين ووضحوا ، بكل اخلاص ، افكارهم في هذا الشأن ، فكان لهم فخر المتقدم .

كان عمر الجزائر الفرنسية عشر سنوات ، اذ وصل اليها سنة ١٨٤١ ، الكاتب الصحافي الشهير لوس فيليو (Veillot) ، وذلك في اول عهد حكومة المارشال بوجو (Bugeaud) . وكان الفرنسيون لم يقوموا بمد يد لهم يستحق الذكر ، فكان الامن لا يزال مضطرباً ، والحرب مستمرة على ابواب قسنطينة وهران ، وممكراً مائة محاصراً ، وكان على الانسان ان يدير وراء المدافع حتى يصل بامان من مدينة الجزائر الى بليدة . فكان يقال القوم عن نتيجة تلك الحروب وهل يكون فتح الجزائر شيئاً صالحاً او شيئاً سيئاً . في تلك الظروف الحرجة ، آس الجبر الاعظم استقبة الجزائر ، وصرح بانها يريد ان يمد الى كنيسة افريقية مجدها النابو . اما فيليو فقال : « ان تكن فرنسا قامت بهذا الفتح ، فان ذلك عمل العناية الالهية التي شاءت ان تفتح تلك البلاد لاستقبال كلام الانجيل » . ولكن تلك النية النبيلة لم تكن بادية للعيان . على ان هذا لم يمنع فيليو من متابعة القول : « اننا نعتقد العمل في سبيل تمزيق التجارة والافتقار ، بيننا نعمل حقيقة في اتمام عمل الصليبيين . وان تجارنا الضميري الايمان يتسمون جهود اتقيا . المسيحيين في القرون الوسطى . فكل ارض حلوها هي ارض تقام فيها ذبيحة القداس ، ويمتد فيها الاطفال ، ويُنشد فيها القديسون ، مها كان عددهم ، مدائح الاله العظيم »^١

فترى ان هذه النتيجة الدينية كانت تظهر ضرورة للويس فيليو وقد قال : « اذا شئنا ، في فتحنا للجزائر ، ان نونس شعباً حياً يلزمنا ان نجتهد في رد هذا الشعب الى الله . وهذه هي العلامة التي تدلني على ان الفرنسيين يمكنهم الاحتفاظ بالجزائر . . . يستحيل على الرب ان يصيروا لفرنسة الا اذا صاروا فرنساويين ، ويستحيل عليهم ان يصيروا فرنساويين الا اذا صاروا مسيحيين ،

(١) راجع Veillot, *Les Français en Algérie*, 7^e édit. Mame, 1867,

introduction, p. 6.

ويستحيل علينا ان نصوّم مسيحين ان لم نصر نحن ايضاً مسيحين حقاً.^{١)}
وانه لمن العجب ان نسمع الصوت نفسه مرتفعاً من اعماق الصحراء ، بعد
ثمانين سنة ، وهو صوت الاب دي فوكو . وبين هذا وذاك ، كان الكردينال
لايجري بذل جهده في اعزاز كنيسة الجزائر وترقيتها .

وكان اول هذا التحسين في سنة ١٨٦٢ ، فزيد في تنظيم الكنيسة بان
رُفِع اسقف مدينة الجزائر الى درجة رئيس اساقفة ، وانشى مطرايفتان
جديدتان في وهران ، وقنطنية . ثم استلم الادارة الكردينال لاييجري
فتقب نظره ظلمات المستقبل ، وصرح لاكليروسه بعيد وصوله قائلاً : «دونكم
مستقبل هذه الكنيسة ، ودونكم ما يجب عليكم القيام به ، وما اساعدكم
فيه بكل ما عندي من الوسائط ، وان ضعيفة : يجب ان نجعل من ارض
الجزائر هذه مهداً لامة عظيمة ، كريمة ، مسيحية ، وبكلمة اخرى يجب ان
نجعل فيها فرنسة جديدة ، فنشر حولنا الانوار الحقيقية لمدينة زاهية يكون
الانجيل موردما الصافي وشريعتها السامية.»^{٢)}

واننا ترى ذلك الشعب الجزائري ينشأ ويتألف تدريجياً فيتحقق شيئاً فشيئاً
قول الكردينال ، وقول ثيليو الذي طلب في الجزائر اسراً مسيحية ،
وكهنة اتقياء محترمين .

اما اول من اهتم الاهتمام الفعلي المكمل بالنجاح بتطور الشعب فكان المارشال
بيجو ، واسمه من اشهر اسما المظالم في الجزائر . فقد اوجد الجيش الجزائري ،
وعزز الأمن ، وبأشغال اعمال الاستعمار الحسن ، فكان لذلك طويقان : الرسمي
والحر^{٣)} . وقد مرّ كلاماً بكثير من التعبات الشديدة ، وما زال يبذل
الاوربيون ، من مختلف الشعوب ، جهودهم حتى وصلوا الى درجة حنة

(١) الكتاب صف 69 Op. cit.

(٢) Baunard, *Le Cardinal Lavignerie*, 2 vol. 1896, Pousielgue ; t. 1, p. 164

(٣) انظر في ما خصّ اعمال الاستعمار الرسمية الابعاث التي قام بها سنة ١٨٩٨ ، السيد
دي پيرصوف (de Peyerinhoff) والتي نشرها مؤخرًا لجنة بيجو ، ومن راجع مباشرة
الاعمال الاستعمارية في لواسط الفلاحين . اما اسم الكتاب فهو :

« La colonisation officielle de 1871 à 1895 ; in-8°, Paris, Soc. d'édit. géograph. »



الرسم ٥
فقير جزائري من البربر

عن Abendland und Morgenland



الرسم ٦
امرأة جزائرية

عن Abendland und Morgenland

فتحقروا ، سنة ١٨٩٦ ، ان عدد مواليد الاوربيين في الجزائر زاد على عدد المهاجرين اليها .

اما اليوم فيبلغ عدد الشعب الجزائري الاوربي ، حسب احصاء سنة ١٩٢٦ ، ٣٥٩ ، ٨٢٣ نسمة منهم ٦٥ ٪ فرنساويو الاصل ، وال٣٥ ٪ الباكون من الاسبان والمتجنين بالجنسية الاسبانية من يهود واوربيين ، ثم من الايطاليين ، والمالطيين وغيرهم . وقد قدم اكثر الفرنسيين الجزائري من جنوبي فرنسا من مقاطعات پروقة ، ولانفدوك ، ودوفينية ، ومن كورسيكة . وهم يولفون الاكثية في سكان المدن والقرى . وقد أشير مرات عديدة الى قوة أنالهم ، وشدة بنيتهم ، لاسيا من كان عائشاً منهم في المزارع . ويرى علماء الاجتماع في هذا الامر افضل ضمانة لمستقبل الشعب الجزائري الفرنسي ، وهم على صواب في ما يرون .

وبما يجدر بالذكر ان هؤلاء السكان تأثروا بعوامل التبلد العديدة ، وعلمت فيهم مظاهر البيئة التي هاجروا اليها ، فقد لهم مظهر خاص ، وهيتة خاصة ، ونيرة ، وعادات ، وأخلاق خاصة . وكذا القول عن سائر المهاجرين الاوربيين ولاسيا الاسبان واهل مالطة ، حتى اصبح في الجزائر شعب جديد اقوى وانشط واوفر اقداماً وجرأة من اخيه الاوربي .

ينتشر الاسبان ومن اليهم في كل الجزائر تقريباً ، إلا انهم يكثرون في جهة الغرب في مقاطعة وهران التي لا تبعد اكثر من ثمانى ساعات بطريق البحر عن مدينة قرطجة . ولهم من الجرأة والجلد على العمل ، والقناعة في الاكل ، واحتمال تقلبات المناخ ، صفات جليلة تساعدهم في جميع مشاريعهم .

اما الايطاليون فكثيرون في جهة الشرق حول مدينة بونة ، واكثر اعمالهم الملاحة ، والاستخدام في المشاريع المهتة كالبناء . والتعدين ، واستخراج الفوسفات . واما المالطيون فلا يستثرون شيئاً في بلاد الجزائر ، ولاكثرهم ميل خاص لتعاطي الاعمال التجارية البسيطة فيفتحون الحرائيت الصغيرة ويتوصلون الى الرخاء لما فيهم من روح الخلق والاقتصاد .

ولكن على الرغم من هذه العناصر المختلفة ، نرى ان المصالح المشتركة

والترابح ، والاتحاد في العقليات والاخلاقيات والسياسيات يؤلف بين الجميع ويجعل منهم ، على تبين اصولهم ، شعباً واحداً هو الشعب الجزائري .
على ان هناك ألفةً اخرى يلزم تحقيقها ، وعنصرأ آخر يلزم ضمه الى هذه العناصر . الا وهو الشعب الجزائري الوطني من البربر الذي اشرفنا ، في اول المقال ، الى زيادة افراده زيادة مطردة ، والذي يؤلف الاكثية الساحقة فيبلغ ٠.٨٦ .
وهو عنصر قوي ، بريء ، ذكي ، يقرب في كثير من صفاته ، من فرنساويي الماسيف سنترال (Massif Central).

اما الفرق الجوهرى الذي يفصل هذين الشعبين الجزائريين احدهما عن الآخر فهو الدين . يتفق جميع الباحثين على ذلك ، ثم لا يجرب احد معالجة هذه المسألة . وقد قال اوغست برنار : « ان لم يكن متعلقاً بنا ان يتكلم اهل الجزائر اسلامهم ، فلا ارى من المحال ان نجمعهم من متكلمي اللغة الفرنسية . »^١
وقالت لجنة بيجو : « ان العمل الجوهرى الضرورى الذي من شأنه ان يقرب طباع الوطنيين في الجزائر فيقرّبهم متباً ، هو ان ندخل بينهم ، في الاوساط التي لا تزال تحجبها الاشواك والقياض ، عدة الاف من الفلاحين الفرنسيين . » على ان كل هذه الاساليب لا تحل تلك المسألة العويصة حلاً كاملاً . ولا زى لها حلاً الا بطريقة واحدة ظهرت في تضاعيف هذا المقال ، وهي الطريقة الكاثوليكية .

A. Bernard, *L'Algérie*, 1929, Alcan, p. 382. (١)

